تشكيلات خطاب المقدس الصحراوي في الثلاثية الروائية (واو الصغرى، الدمية، الفزّاعة) لإبراهيم الكوني

طالبة الدكتوراه: ابتسام لهلالي
قسم الأدب واللغة العربية
كلية الآداب و اللغات
جامعة بسكرة (الجزائر)

ملــخص:

استحضر الروائي إبراهيم الكوني في الثلاثية الروائية(واو الصغرى، الدمية، الفزّاعة) تقاليد الأسلاف ومعتقداتهم، نواميس الصحراء وشرائعها العليا، أساطير الطوارق وخرافاتهم، أحلامهم وخطاياهم، اختصر الروائي مراحل الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية بحكي سردي –عجائبي يعكس البعد الكوني والأسطوري والفلسفي لشعوب الطوارق، ويترجم صعوبة واقع التيه والضياع والغربة، والجوع والعطش التي تعتبر إحدى ثوابت الصحراوي، ليأسر القارئ العربي بثراء خطاباته السردية التي تتغذى بمعالجة ظاهرة المقدس الصحراوي.

الكلمات المفتاحية: الطوارق، المقدس، الأسطورة، الفضاء الصحراوي، النواميس المقدسة.

Abstract:

The novelist Ibrahim al-Kony, in his three novels (waw el-soghra, el-domia, el-fazaa) , evokes the traditions of the ancestors and their beliefs, and the laws of the desert and its high laws, as well as the legends of the Tuaregs and their myths, without forgetting their dreams and sins; the novelist shortens the stages of social, political and religious life using the magical narrative method that reflects the cosmic and legendary and philosophical dimention of the Touareg peoples, in addition to that the novelist translates the difficulty of the reality of loss and alienation, not to mention hunger and thirst, all of which is one of the constants of the individual who lives in the desert, in order to fascinate the Arabic reader with the richness of his narrative discourse, which is fed by the treatment of the sacred desert phenomenon.

Keywords: Tuareg- sacred- Legend- Desert space- sacred supreme laws.

تمهيد:

تشكل روايات إبراهيم الكوني (واو الصغرى، الدمية، الفزّاعة) مزيجا بين خطابات متباينة، استحضر فيها الروائي المقدس والمدنس، العجائبي والغرائبي، الفلسفة والتصوف، الأسطورة والتاريخ، وظّف آليات أنثروبولوجية تبحث في خبايا المجتمع الطارقي الصحرواي. عاداته وتقاليده، معتقداته وخرافاته، حيث تشكلت هذه الأنساق عبر رواسب ثقافية متجذرة في عمق الوعي الجمعي الطارقي الذي تشبع بروح السلف، ونواميس الصحراء وأقدارها، طبيعتها الصعبة ومزاجها الجاف، الذي ما لبث أن انعكس على شخصية الطارقي وعقيلته، لتغدو شخصيته معادلا رمزيا للفضاء الصحراوي.

يتجلى السر المقدس في الثلاثية الروائية(واو الصغرى، الدمية، الفزّاعة) في الإيماءات الطقوسية، والرؤية الرمزية للواقع، إذ انبجست قريحة ابراهيم الكوني في سرد الفضاء الصحراوي المتشبع بالرموز المشفرة والدلالات المعقدة من خلال تشكيلات مقدسة، احتلت مكانتها داخل الثقافة الطارقية من خلال دلالتها الرمزية، سنحاول تقصي تشكيلاتها داخل الفضاء الصحراوي:

أولا: الصحراء باعتبارها فضاءً مقدساً

يشكل الفضاء الصحراوي نقطة استفهام لدى الكثير من الباحثين الذين يسعون إلى تقديم دراسة تشريحية لطبيعة الصحراء وفهم ثقافة سكانها؛ لكن طبيعة الكون الصحراوي المشبع بالرموز والأساطير والخرافات، وقف حاجزا أمام مختلف الدراسات الأنثروبولوجية والثقافية، ليعجز الباحثون في فك طلاسمها وشفراتها.

ومن جهة أخرى تعد الصحراء محل إشكال بالنسبة للإنسان الصحراوي نفسه الذي عاش حالة صراع دائم مع كل مظاهرها، بعد محاولاته الدائمة لفهم طبيعتها وتفكيك معالمها الغامضة، لكنه ما لبث أن قدسها، واعتبرها قدره المحتوم، ومصيره الأبدي.

قدّم إبراهيم الكوني في ثلاثيته السردية(واو الصغرى، الدمية، الفزّاعة) معالم الفضاء الصحراوي من خلال استحضار الصحراء، الواحة، الضريح، المعبد، الطير، باعتبارها مقدّسات توارثتها الأجيال. وأكسبتها بعدا رمزيا داخل المنظومة الثقافية والحضارية لأهل الصحراء.

1. الصحراء: هي الفضاء الجغرافي الذي يتميز بمناخ جاف وحرارة مرتفعة، يسودها الخلاء والسكون، هي الأسطورة التي سكنت وجدان أهل الصحراء، بكل نواميسها المقدسة، هي مفتاح الفردوس المفقود؛ والسر الكامن في نفوس الصحراويين الذين آمنوا بالصحراء ليس كفضاء مكاني أو جغرافي فحسب، بل باعتبارها الروح المقدسة التي تسكن وجدانهم. وفي هذا الصدد يقول إبراهيم الكوني: «لا نحتفي بالصحراء لأنها الركن الأوحد من أركان مملكة الطبيعة(...) ولكننا لابد أن نحتفي بهذا الركن لأنه المكان الأكثر نبلا في مملكة الطبيعة الذي استطاع بنبله أن يحوّل الطبيعة من مملكة إلى ملكوت»[1]، هي

الصحراء الصمّاء التي تحوّلت من مجردّ فضاء جغرافي، يكتّى بالعالم الأرضي السفلي إلى عالم الملكوت السماوي، لتغدو الصحراء مصدرا غنيا للأسطورة والمقدس والفلسفة والتأمل.

تعد الصحراء بؤرة صراعات الإنسان المتعددة؛ بفضل ما أنتجته من نواميس عليا، فرضت نفسها بسلطة الدين والمقدس، فغدا البائس الشقي مجبولا على الإطاعة وتقديم الولاء لضمان حياته داخل هذا الفضاء الذي تمتزج فيه عوالم الإنس والجان والأرواح، الشجر والحجر والطير، وعليه الإيمان بكل مظاهر الطبيعة الصحراوية خوفا من غضبها أو طلبا لمرضاتها، أو درءً لمضراتها.

تجلت الصحراء داخل نصوص إبراهيم الكوني (واو الصغرى، الدمية، الفزّاعة)، في صور متعددة ترمز إلى الصراع والقسوة والحرية والخلاء والأصالة، والقداسة التي حولتها من مجرد فضاء مكاني إلى عالم ملكوتي:

أ. الصحراء رمز للصراع: سرد ابراهيم الكوني عبر ثلاثيته الروائية حياة الطارقي، وصراعاته المتعددة مع الطبيعة من خلال حالة الجفاف، الحرارة والمناخ الصعب، ويقول في متن روايته "واو الصغرى": «ماء في السماء، وماء في الأرض. إن عدمتم ماء السماء ففتشوا عن ماء الأرض»[2]؛ ومفاد هذا القول إن لم تهبكم السماء مطرا، فلابد من البحث عن ينابيع الأرض، فاتجهوا إلى الإله "آمناي" طالبين نزول المطر، والحد من جفاف الصحراء. لكن الإله أبى ورفض طلب الأهالي، فاتجهوا إلى كنوز الأرض، لكن الأخيرة أرادت قربانا، ليتجه الطارقي إلى النذور والقرابين.

فرضت الأرض قربانا بشريا، لكي تمنح الصحراوي مطلبه؛ «قربان الأرض ليس أقل من قربان السماء»[3]؛ ولأن الصحراوي يؤمن بكل ما تنذر به النبوءة، فإن الأهالي استجابوا لأمر النبوءة، وقدموا حقّار البئر قربانا للأرض. ليرضى الإله، وانفجرت الأرض غمرا، سد حاجة الصحراويين. ارتووا منها وزرعوا الأرض، وعاشوا حياة مترفة.

ويعود تقديم الطارقي للقربان البشري هبة للأرض إلى ما يسمى بظاهرة تألّيه الأرض، هذه الظاهرة التي تفشّت بين الحضارات القديمة، والتي تفسر حقيقة ميثولوجية، تحكي قصة الإنسان الذي ولد من رحم الأرض، وعليه أن يقدم قرابين باستمرار ليبقى على قيد الحياة كهدية لأمه الأرض امتنانا لها.

ب. الصحراء رمز للقسوة: تتجلى قسوة الصحراء في شرائعها، ونواميسها العليا التي أضحت مقدسا يكافئ مقدّسها ويجرّم مدنّسها، وتتجلى معالم قسوتها في: البلاء، التيه والنفي من الموطن الأصلي نتيجة لمخالفة وعصيان أو لوجود خطيئة كبرى يقترفها الإنسان، فيجرد من هويته عنوة، ويطرد خارج القبيلة، لتبدأ معاناة هذا البائس الشقي، إثر تحوله من حالة الاستقرار إلى مرحلة التيه والضياع.

سرد الروائي إبراهيم الكوني في الثلاثية الروائية(واو الصغرى، الدمية، الفزّاعة) قصة نفي الشقي من موطنه نتيجة لخطيئة اقترفها، وهي سرقة التبر(الذهب) وامتلاكه؛ لأن حيازة هذا المعدن النحس-كما يطلق عليه- في عرف الصحراويين، سيجلب اللعنة والشر إلى الصحراء التي كانت تعيش

في حالة سكون واستقرار أخلاقي واجتماعي؛« معدن النحوس لم يدخل أرضا إلا ونزل بها الخراب، وجعل أعزّة أهلها أذلة»[4]؛ فانعكست الخطيئة على سكان الواحة، وتحولت إلى ساحة لاجتماع الصنّاع والتجار والمقايضين، ولا صوت يُسمع فيها غير صياح التجار والحرفيين. الذين حوّلوا الواحة الصامتة إلى فوضى، وأغضبوا الصحراء، فأسقطت عليهم لعنتها، لتبدأ المشاكل الأخلاقية والاجتماعية، بظهور الجريمة:« وتنقلت بين المضارب أقوال تفيد أن الشر قد داهم النجع منذ زمن بعيد، لأن أبناء القبيلة خالفوا الوصايا، وقايضوا التبر من تجار القوافل بالبعائر والسروج وأوعية السمن، وأخذوا هباء النحس إلى الحدادين، فضربوا لهم المعدن القبيح في حلي لئيمة، ليقدمها هؤلاء الأشقياء لمعشوقاتهم عربون عشق ووفاء»[5]، العشق أعمى بصيرتهم، خالفوا شرائع "آنهي" المقدسة، التي تلزم على الطارقي الابتعاد عن كل ملذات الدنيا؛ لأن اللذة سبب رئيسي في خلق اللاتوازن الأخلاقي والاجتماعي. ليعاقب الشقي من طرف مجلس القبيلة بالنفي والتيه والضياع، بسبب سعيه وراء اللذة والشهوات الدنيوية.

ج.الصحراء رمز الأصالة: الصحراء هي الفضاء الجغرافي الشاسع، لها نواميسها الخاصة، تكتنز أسرار الخلق والكينونة، التي تتسم بالبعد الديني والأخلاقي. وهي رغم قسوتها وجبروتها؛ إلا أنها لازالت تؤثر على عقل الصحراوي؛ إذ «يعترف الطارقي بجبروت الصحراء وسطوتها ومن ثم صعوبة إخضاعها فينحني أمامها، يقبل بشروط العيش فيها وبتقلباتها ويرضى بقدره دون أن يتحدى»[6]؛ ينحني أمام قوتها طائعا لشرائعها، ومقدّسا لمظاهرها وأساطيرها، ومحافظا على بنيتها الثقافية والاجتماعية، رغم عصر التمدن والعولمة، باختصار تشكل الصحراء رمزا للأصالة والموروث الشعبي الذي لازال يحافظ هويته.

في الثلاثية السردية لإبراهيم الكوني(واو الصغرى، الدمية، الفزّاعة)، نلمس ملامح الأصالة من خلال تحولات السرد المكاني، من الفضاء الصحراوي إلى الواحة؛ إذ هجر الطارقي الصحراء وسكن الواحة، لنلحظ تبدل أخلاقه، وتعالت المصلحة على الأخلاق. تمرّد على نواميس الصحراء وشرائع "آنهي"، مارس التجارة، وامتلك التبر- المعدن المنحوس-، اقترف الخطيئة، بجريمة اغتيال الزعيم أوغللي من طرف خليله آهلوم:«تناول البطل المدية وقطع خيط التمائم بمهارة الأبطال. رمى بالقلادة المطرزة بقطع الجلد بعيدا، فهمدت الأنفاس في الحال. أنزل النصل الشره على الرقبة، وجرّه على النحر بوحشية كأنه ينحر شاة، حزّ الرأس عن الجسد، وخاطب الأقران: تستطيعون الآذان تجرجروا بالرأس إلى ساحة الملأ!»[7]، ونكّل بالجثة أيّا تنكيل، هي جريمة شنعاء توضح موقف الروائي من الطارقي الذي باع الصحراء وأخلاقها ليسكن الواحة، فتدنت أخلاقه وباع ضميره، وفي المقابل لا نجد هذه الصفات موجودة عند الصحراوي.

2. الواحة: تعتبر الواحة من خلال ثلاثيته(واو الصغرى، الدمية، الفزّاعة) إبراهيم الكوني، رقعة جغرافية لها مساحة محدودة، تحاصرها الجدران من كل جهة، هي الفضاء المقيد للحرية، تتجرد من كل قيم القداسة، وتقف في خط عكسي مع الصحراء؛ حيث«الصحراء هي النقاء والوضوح والحرية

والقداسة والأصالة، بمقابل المدينة التي تمسي لديه التعقيد والاستلاب، وضياع الملامح، والأسر، والإبهام، والخيانة، والصفقات المشبوهة غير الأخلاقية، وتشويه الإنسان واستلابه واغترابه عن ذاته وعن جوهره الأصيل»[8]، ليهجر الصحراوي الأخلاق والنواميس العليا، ويعيش حالة التغريب والضياع والتيه الأخلاقي والاجتماعي والديني والثقافي.

تجلت ملامح الفضاء المكاني "الواحة" في ثلاثية إبراهيم الكوني، باعتبارها بؤرة الصراعات بين الإنسان وأخيه، وبين الإنسان ونواميس الصحراء المقدسة، بل في بعض المقاطع السردية نستطيع أن نعتبر الواحة بؤرة المفارقة السردية. إذ انقلبت الأحداث، وتغيّرت مجراها من درجات القداسة إلى دركات التدنيس، بتحوّل فضاء الأحداث من الصحراء إلى الواحة، وبالتالي انكشفت ملامح الصحراويين الذين هجروا قيم الصحراء، وشرائع "آنهي" ليسكنوا الواحة ويتلبسوا بقيمها. لتغدو الواحة رمزا إلى: الفوضى، تدني المستوى الأخلاقي، الصراعات، العبودية...

أ. الواحة رمز للصراع: وصف الروائي إبراهيم الكوني الواحة أو كما يطلق عليها"واو" الفردوس المفقود في الثلاثية الروائية(واو الصغرى، الدمية، الفزّاعة)، بسمات مختلفة عما ألفناه من صفات حسنة للفضاء الصحراوي، فغدت الواحة بؤرة للصراعات، والمنافسات الغير مشروعة، هي موقع الشر والنفاق بين الخلّان، وحروب لأجل المصلحة الشخصية.

هجر الطارقي الصحراء، بحثا عن فضاء بديل، فضاء يحمل معه أحلام الصحراوي في الولوج إلى حياة وعالم أفضل، اجتهد في الوصول إلى"واو" السر المقدس. ولكن رحلة بحثه عن "واو"، كانت محفوفة بالمصاعب والمشاكل، إذ خُيّل للطارقي أنه بلغ المنتهى حين عثر على فردوسه المفقود "واو"؛ «فبدت الواحة في ذلك الخلاء الرمادي العابس، لعين عابر السبيل، مدينة عجيبة من مدن الجن، أو واحة فريدة من الواحات المفقودة التي تتحدث عنها أساطير الأولين فتقول أنها تظهر لسابلة لا يطلبونها، وتختفي في وجه آخرين يخرجون في طلبها»[9]، لكن "واو" كانت بداية شقاء الطارقي وضياعه، وبدأت معاناته الأخلاقية والاجتماعية، ودخل مرحلة التيه الأخلاقي، وعاش حالة من الاضطرابات النفسية والاجتماعية.

من الناحية الأخلاقية؛ ارتكب الطارقي الخطيئة الكبرى، حين تمت جريمة قتل الزعيم أغوللي من طرف خليله آهلوم والتنكيل بجثته، ولعل أبرز دوافع القتل هو رفض سكان الواحة لوجود زعيم بشري،«كيف فاتك أننا لا نريد إلا دمية »[10]، وبحثوا عن دمية بديلة تكون سلاحا في يد أكابر القبيلة يسيرونها حسب مصالحهم الخاصة، ولتكريس أطماعهم الدنيوية المدنّسة. وفيم سبق نشب خلاف بين الخليلين بسبب امرأة «الاقتتال بسبب الحسناء أمر معيب»[11]، والخلاف حول امرأة يعد أمرا معيبا ومشينا في العرف الطارقي، خاصة وأن المتنافسين هما أحد أعيان القبيلة، ومن جهة أخرى نلحظ في استحضار الروائي لحادثة الخلاف الخليلين حول امرأة، يدل على وجود تناص ديني، استحضر فيه

الروائي أول جريمة في تاريخ الإنسانية، التي كانت بين الأخوين قابيل وهابيل، ليقتل الأول الثاني بسبب امرأة.

وأما من الناحية الاجتماعية؛ فقد سادت الفوضى وتغلبت أطماع الطوارق على أخلاقهم، مارسوا التجارة خالفوا الناموس الصحراوي، امتلكوا التبر المعدن المنحوس، هذا الأخير الذي جلب البلاء لسكان الواحة، فانتشرت الفوضى، وظهر الفساد، وانحصر الطارقي في زاوية المدنس والانحطاط، ليصارع العالم الدوني.

ب.الواحة رمز العبودية: بين تعالي السماء وانحطاط الأرض، وفي خضم قسوة الطبيعة الصحراوية، وشرائعها المقدسة، عاش الصحراوي الحرية في عبادته، كان قانعا راضيا بقدره المحتوم، قدّس الصحراء، وأسطر مكوناتها؛ لتغدو الصحراء أسطورة الطوارق. لكن أطماع الصحراوي الطارقي في البحث عن البديل الأفضل وتغيير مصيره، حوّلته من كائن حر إلى بائس شقي مقيد؛ لأن«الأشياء المادية مهما كانت قيمتها تجلب السوء وتؤثر على النفس البشرية إن هي تعلقت بها »[12]، فتجرد الطارقي من الرؤية الصوفية التي كانت تلبسه في الصحراء، وتمرد على نواميس "آنهي"، وسعا إلى كسب الربح وامتلاك الحرام والدنس، وجلبوا البلاء والشؤم إلى الواحة؛ ومن خلال الثلاثية السردية نستطيع أن نحصر عبودية الواحة في شقين:

الشق الأول: العرف الصحراوي يرفض الإقامة في نفس المكان لأكثر من أربعين يوما، بل قانون الترحال الدائم للطارقي هو أحد النواميس المقدسة التي جبل عليها الصحراوي؛ لأن الصحراء منحت الصحراويين الحرية في التنقل والتجدد،«ألم يعلمنا ناموس الخلاء أن من يمتلك أرضا امتلكته أرضه؟... ألم يوصنا الأسلاف أن نحترس من البقاء في أرض أكثر من أربعين ليلة؟»[13]، لكن غواية الواحة بسطت هيمنتها على عقل الطارقي فاستعبدته؛ خالف الناموس، واستوطن بأرض الواحة لمدة طويلة، فكانت بداية العبودية؛ التي سلبت الطارقي حريته؛ وأصبح مملوكا لملك أراد امتلاكه.

الشق الثاني: امتلاك التبر، مزاولة التجارة، المقايضة والمبادلات، كل هذه الظواهر نجحت في تكريس عبودية الطارقي للعالم الدنيوي والأشياء المادية، هجروا التصوف الذي نص عليه الناموس الصحرواي بعدم امتلاك المادة، تجردوا من العالم الروحاني، وقداسة الأساطير الطارقية الصحرواية وتعالياتها، تمسكوا بالأشياء، والمادة، والدنس، الذي قاد الطارقي /الصحراوي إلى البلاء والضياع. سكنت التجارة وجدان الأهالي، فلم يبق أمامهم سوى الخضوع طوعا أو كرها لمنظومة جديدة، ضربت منظومة القيم والأخلاق التي كانت تسكنهم، حين كانت الصحراء مكانهم المقدس.

ج. الواحة رمز الفوضى: حين اتخذ الطارقي الواحة سكنا له، عبد المادة والذهب، وامتلك الأشياء، شيّد المباني والأسواق، فظهرت الفوضى، وتعالت الأصوات بالتباهي بعرض السلع التجارية، وكأنهم ينذرون بالخير والرفاهية، التي ستحل بالواحة، ولكن«من تخلى عن الصحراء وسكن الواحة لا يبكي

ضياعه فقط، لا يبكي إحساسه الفاجع بخيانة العهد، والتخلي عن الأسفار والتفتيش وطلب الحنين المفقود فقط، ولكنه يبكي لأنه اكتشف خسران الرهان، وبطلان المقايضة التي باع بموجبها جذوة موقدة (...) لينال ذلا من أرض ظن أنه امتلكها فامتلكته، لم تمتلكه فقط، ولكنها قتلته»[14]، فتحولت الحرية إلى عبودية وقيد، والمقدس إلى مدنس، ومن الإيمان بقدر الطارقي ومصيره المحتوم في الصحراء، إلى البحث عن الأفضل ومحاولة تحدي المصير والقدر، من خلال التخلي عن الناموس والعرف الصحراوي، وتحوّل الهدوء والخلاء والسكينة التي تهمس بغناء الطير المقدس، إلى فوضى وصراخ وضيق بفعل البناء والجدران.

3. الطير: منذ القدم يعتبر الطير أحد أهم وسائل نقل الأخبار، بل هو رسول المراسلات، فكثيرا ما كانت الشعوب تبعث برسائل الحب والحرب عبر هذه الطيور التي كانت أمينة في نقل السر من المرسل إلى المرسل إليه، ولذلك احتفت الحضارات القديمة بالطيور وقدستها، إذ اعتبرت الحضارة التركية القديمة أن« الأرواح قبل الولادة طيورية ortmithamorphes»[15]؛ أي إن الأرواح قبل أن تلتصق في جسد الإنسان، كانت في الأصل طيرا؛ فربطوا الأتراك الروح العليا بالطير. أما حضارة الرومان فلها طقوس خاصة« عند موت الإمبراطور كان الرومان يطلقون عقابا رمزا لصعود روحه بين الآلهة»[16]؛ ليغدو الطير جزءً من طقوسهم الجنائزية في التخلص من الجسد والروح، ليربطوا الطير بالروح المقدسة التي تصعد إلى الآلهة.

كشفت الثلاثية الروائية "واو الصغرى، الدمية، الفزّاعة" لإبراهيم الكوني، موقف الطوارق من الطير، الذي امتزج بين التفاؤل والتشاؤم، فالطير في العرف الصحراوي هو الرسول الذي يحمل النبوءة المقدسة؛ يستقبل النجع أسراب الطير بطقوس خاصة «أهل الصحراء كلهم يخرجون إلى العراء عندما يلوح في الأفق أول سرب. يهرع العقلاء أولا في الاستقبال الملة المهاجرة(...) يتقدمهم الزعيم وحيدا ملفوفا في لباس المناسبات. خلف الأكابر يسير الفرسان في فرق أيضا، خلف الرجال تخرج جمع النساء، يجرجرن الأولاد ويلوّحن بالصغار الرضع في الهواء، يردّدن مواويل البشارات، ويزغردن في آذان أطفالهن بسير تقول" هاهو الطير الذي وهبك لي في العام الذي مضى قد أقبل من جديد. هاهو"أبيل أبيل" الذي حملك إليّ قد أتى ليراك"»[17]. تلك البشارة التي تحمل معها الفرح، في نفوس النسوة اللاتي استعددنّ لزيارة الطير للنجع، بترحيب خاص بحمل أطفالهم والتلويح بهم، كجزء من الطقوس الخاصة بالطير؛ لأنهم يعتقدون قطعا أن أطفالهم، هم ودائع الطير.

حمل النسوة الرسالة القديمة إلى أطفالهم، ومفادها « الطير هو أمك، الطير هو أبوك. الطير هو أهلك، الطير جاء يزور وديعته(...) متى تربي جناحا ليقبلك السرب في القبيلة وتهاجر مع الطير إلى بلاد الطير؟ »[18]، قصة نسب الأطفال للطير، أسطورة طارقية قديمة تداولتها الأجيال وآمنت بها. وفي هجرة الطير رمزية لدى الطوارق؛ تمتزج بين التفاؤل والتشاؤم:

أ. الطير رمز التفاؤل: يتنبأ السحرة والعرافين، البشارة والخير بين جناحي الطير، فيرصدون أوقات ظهورهم على سماء القبيلة، لتبدأ طقوس التنبؤ؛ ومن خلال رواية "واو الصغرى"؛ كشف الروائي ابراهيم الكوني على صنفين من الطير: الأول حمل اسم أبيل بيل؛ وهو طائر« البشارة، وحامل نبوءة الميلاد، هو من يقوم بتوزيع الأطفال على الأخبية حاملا إياهم على أجنحته»[19]؛ يتفاءل الطوارق بهذا الطائر، والبشارة التي يحملها، ولعل السبب يعود إلى تشابه هذا الاسم مع الطير "أبابيل" الذي ذكر في القرآن الكريم في قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝» [20]، وحسب ما ورد في الآية 3 من سورة الفيل فإن الطير "أبابيل" أرسله الله عز وجلّ عقابا لأصحاب الفيل الذين أرادوا تدمير الكعبة المباركة؛ فحمل ذلك الطير الحجارة ليقذف الكفار ويحمي الكعبة التي تمثل قبلة المسلمين، وبالتالي حملت جموع الأبابيل بشارة للمسلمين بحماية الكعبة من التدمير وصونها من أي أذى. وفي استحضار الطائر "أبابيل" تناص ديني، ليسقطه على الطائر "أبيل أبيل" المقدس لدى الطوارق.

الطائر الثاني هو "مولا مولا" المقدس، يعتبرونه الطوارق « طائر البشارة وحامل المسرات، هو طائر أسود اللون. تتوج رأسه بقعة ناصعة البياض، وهذا ما أعطاها سر تألقها، وتعلق الصحراويين بها... لم يسبق لأحد أن عثر له عن عش، أو وجده ميتا، ولم تطله أبادي الصيد ولا وسائله، لقدرته على التخفي وهذا ما يجعل منه طائرا قدسيا... فقد اختارته الصحراء رسولا لها يحمل البشائر»[21]، يستقبله العرافة بطقوس التنبؤ والبشارة، إذ « يطاردون أسراب الطير ليقرؤوا أنباء مجهولة يخفيها الخفاء في مسلكه وأصواته وطرق طيرانه»[22]؛ لأن الطائر "مولا مولا" يحمل رسالة سماوية، يستقبلها الطوارق بالطاعة والقبول لوصايا السماء التي جعلت من الطائر وسيطا رمزيا؛ وقد ربطت الطوارق بين الطير والسماء؛ لأن الطير يتخذ من السماء مسكنا دائما، ومن العالم العلوي رمزا لتعاليه عن العالم السفلي؛ فهو يرفض الإقامة خارج فضائه؛ لأن من عاش في السماوات العليا، لا يستطيب له العيش في الحضيض/ الأرض.

ب. الطير رمز التشاؤم: تفاؤل الطوارق بالطير سواء أكان "أبيل أبيل" أم "مولا مولا" أو غيرهما؛ يعود لشكل الطائر في الأساس وقوته في التحليق الدائم. فكانوا يتفاءلون بالطائر الفتي الذي يحلّق في السماء دون تعب أو كلل، طائر ترسله السماء فيسرع في تبليغ الرسالة. يستقبله العرّافة وسكان النجع بكل فرح وسرور؛ لكن إن تأخر الطير في تبليغ الرسالة أو أصابه العجز والتعب نتيجة كبره في السن؛ فإنه سيجلب النحس والتشاؤم للنجع؛ لأن« الطائر العجوز يجلب النحس»[23]، وقد رصد الروائي إبراهيم الكوني في روايته "واو الصغرى" ضعف الطائر العجوز الذي تخلف عن السرب، وعن ملته، فأصبح

غريبا ملعونا من طرف سكان النجع الذين لم يروا في الطائر العجوز سوى الضعف والوهن والعجز، وظهرت عليه علامات المرض والكبر، ليغدو رمزا للتشاؤم وفأل السوء.

ومن ناحية أخرى تشاءم الطارقي من الطائر الغتاء الذي تم ذكره في رواية "واو الصغرى"، بسبب غنائه الذي يؤثر في النفوس، إذ«حذر القبائل من فتنة طائر الخفاء عندما رأوا فعل أغانيه في النفوس، وسلطان لحونه على عقول أعقل العقلاء(...) يأخذهم الطائر بالصوت فيمكثون في الأودية أياما، وكثيرا ما ينسون أنفسهم هناك فيمكثون ما مكث الطائر الخفي، لا يأكلون، ولا يشربون، لا يتكلمون ولا ينامون...ويرجفون بحمى الوجد والمس، وتستيقظ في صدورهم قبائل الجن التي ظنوا أنهم قضوا عليها بتمائم الأولين إلى الأبد»[24]، ولم يعرف النجع أية معلومة حول هذا الطائر فاختلفت الروايات حوله، ولكنهم« قالوا إن طائر الفتنة ليس رسولا من رسل الخفاء، ولكنه مكيدة جديدة من مكائد العدو الخالد "وانتهيط" فليحترسوا، وليتعلموا التزام الحذر»[25]؛ لأن هذا الطائر المجهول أُرسل إلى النجع لسلب عقول الطوارق، بسبب لحونه التي تدخل الوجد للنفوس، ويجعلها مسكونة بصوت الطائر وشجونه. تلك الشجون تخرج الروح في رحلة التخلص من الجسد ليسكنها التيه والضياع والحزن، وكأن الروح فارقت الجسد نهائيا، فتعيش تلك الروح مسكونة بصوت الطائر المجهول.

4. الضريح: احترام الشعوب للأضرحة والتقرب إليها من المعتقدات الاجتماعية والدينية التي ترسّخت في ذهن الوعي الجمعي العربي، حيث بقيت تلك الأفكار على شكل ترسبات ثقافية لازالت مجتمعاتنا العربية تستعين بها لحد الآن؛ لأن«عدم اعتراف الإنسان القديم بفقدان هؤلاء هو السبب الذي ولّد في نفوسهم مبدأ الإيمان الناتج عن اليقين بقداسة رفاتهم. هذا اليقين الذي أنجب الإيمان بخلود الروح كما نجده في ثقافات الصحراء الكبرى أو مصر القديمة من خلال اللجوء إلى أضرحة الأسلاف عندما يتطلب الأمر استجداء النبوة، أو الفوز بوصية»[26]، وإن كان تقديس المكان/ الضريح يعود بالدرجة الأهم لتقديس المدفون بذلك المكان، وإيمانهم بقدرته على تغيير مصائرهم، فيتقربون للسلف لأخذ نبوءة أو وصية، يتعاملون مع أرواح السلف لا أجسادهم؛ لأنهم موقنون بأن روحه ستبقى عظيمة حتى بعد موت الجسد ودفنه تحت التراب.

ظهرت حاجة الطارقي إلى بناء الأضرحة من خلال ما أورده الروائي إبراهيم الكوني في مدونته "واو الصغرى" قائلا على لسان شخصياته:« نستطيع أن نقيم أضرحة مهيبة لأمواتنا أضرحة حجرية، نزورها في الأعياد، ونتوسدها في الليالي لنستعير منها نبوآت تحذرنا من العدو، أو من الوباء، أو من الجدب، وإذا تمادى الجن في إزعاجنا، ذهبنا إلى الأضرحة، ونبشنا الحجارة، لنستخرج عظام موتانا لنصنع منها تمائم ترافقنا في أسفارنا، ونستعين بها في إرهاب أهل الخفاء»[27]؛ لأن الطوارق يعتبرون الزعيم الذي يرقد في ذلك الضريح، كائنا متعاليا عن البشر العاديين، تتواصل روحه مع أهل السماء، هو كائن تجرد من سمات إنسانية، ولبس ثوب كائنات الخفاء.

والطوارق « يستعيرون تجربة أسلافهم القدماء استنطاقا لعقلهم الديني الباطن، لا عبادة للرفات الذي يحويه كيان الضريح، ولكن تخليدا للرمز الذي أبدعه صاحب الضريح»[28]، وعليه تكمن أهمية تقديس الضريح لا باعتباره مكانا له مساحة معينة يحوي جثة أحدهم، ولكن تبلغ رمزيته في الروح التي تسكن ذلك الضريح، والتي يؤمن بها الوعي الجمعي الذي جبل على تقديسها منذ صغره؛ «وهذا التجسيد لصورة الالتفاف حول المكان المقدس، الضريح الذي يعكس الطهر والصلاح هو العالم النموذجي لهؤلاء لكسب مزايا الحياة السعيدة وتجاوز عراقيلها ومحنها، وهذا ما يجعلنا ندرك رمزية أخرى ملموسة يلاحظ بناؤها بالعين المجردة، فيدرك أو يؤول مباشرة بتغذية راجعة بنيتها الروحية والإعتقادية»[29]، وهذا ما لمسناه حين رفض الصحراويين تنصيب زعيم آخر بديلا عن زعيمهم الروحي الذي يرقد في الضريح، واتهموا سكان الواحة بأنهم يعبدون الدمى البشرية، بدل الروح المقدسة التي ترقد في الضريح، وتوحي لهم بالنبوءة السماوية، وتحميهم من الشرور والأذى.

رصدت بعض المقاطع السردية من رواية "الدمية" لإبراهيم الكوني، ثورة الطوارق على تنصيب زعيم بشري، بديلا عن الزعيم الروحي،« هل رأوا في الزعماء الذين يدبّون على الأقدام حكمة أكبر من زعيمنا الذي يرقد في ضريح المعبد؟ (...)أهل الخلاء وحدهم يحتاجون إلى صوت الخفاء الذي تسميه الأبد، أما أهل الدنيا فلا يريدون من الدنيا إلا دمى الدنيا»[30]، وهذا يدل على الفرق الكبير بين سكان الصحراء وسكان الواحة، فالأولون يتباهون بروح السلف، يحترمونها ويبجلونها، يتقربون لها بالنذور والقرابين طلبا لمرضاتها، أما سكان الواحة فيرفضون روح السلف والأولون، ويتغنون بالأشياء، أرادوا كائنا بشريا يمشي على قدمين، يسيّر أمورهم ويدبّر شؤونهم، ويساندهم في رحلة البحث عن الفردوس المفقود.

وعليه يمكن اعتبار قدسية الطوارق/ الصحراويين للضريح يعود لرمزيته الدينية في تقصي النبوءة، وعبادة الأسلاف والأولين الذين يشع بهم الضريح نورا يهتدون به، حين الضياع، والتيه، وطلب للمغفرة، أو رد الأذى، وتحقيق الأمنيات. ومن جهة أخرى تقديس الضريح ينبع من تقديس الطارقي للروح التي تسكن الضريح؛ لأن الجسد إذا فارق الحياة ستبقى روحه حية، تتصل بالسماء لتتعالى عن الأرواح التي لازالت على قيد الحياة، وهم بذلك متأثرون بما آمنت به الحضارات الشرقية، وبالأخص الحضارة الفرعونية التي كانت تؤمن بتناسخ الأرواح.

ثانيا: النواميس المقدسة:

تربى الطارقي منذ طفولته على مجموعة من الوصايا والقوانين، تداولتها ألسن العجائز ورددها الشيوخ في مجالسهم، لم يعارض الطارقي تلك الوصايا، رغم طلاسمها، بل حاول التأقلم معها والإيمان بها تقديرا للأولين من جهة، وخوفا من خطيئة تجاوز الوصايا من جهة أخرى؛ لأنهم اعتبروها الوصايا التي لا تندثر.

في الثلاثية السردية(واو الصغرى، الدمية، الفزّاعة) للروائي إبراهيم الكوني، ظهرت الرؤية الفلسفية والرمزية للنواميس الصحراوية المقدسة، والتي يعتبرها الطارقي بنية أساسية من البنى التحتية للمجتمع الطارقي الصحراوي، الذي يرى في تلك النواميس امتدادا للموروث الشعبي الذي تلفه هالات القداسة والاحترام.

1. عادات الزواج: يحظى الزفاف في كل الحضارات الإنسانية الغربية أو الشرقية، بطقوس معينة، تختلف من بيئة إلى أخرى، يقوم أساسها على تقوية الروابط بين الرجل والمرأة بطريقة شرعية، ليعبر كل طرف لشريكه بوسائل مختلفة عن الحب والاحترام الذي سيجمعهما.

الزواج خلافا لكونه علاقة اجتماعية تنتج نسلا يحافظ على السلالة البشرية، فهو كذلك «مؤسسة اجتماعية مهمة، لها أعرافها، وأحكامها، وقوانينها، والتي تختلف من حضارة لأخرى، وأنه علاقة جنسية تقوم بين شخصين في الجنس (الرجل والمرأة) يشرعها ويبرر وجودها المجتمع، وتستمر لفترة طويلة من الزمن، يستطيع من خلالها المتزوجان البالغان إنجاب الأطفال، وتربيتهم ضمن القواعد التي فرضها المجتمع»[31]، هي علاقة شرعية يشرف عليها المجتمع بمباركة عائلة الزوجين وأهلها، عبر إبلاغ المجتمع بموعد اقترانهم وسط مراسيم الزفاف التي ترافقها طقوس متنوعة، يحضرها الأهل والأقارب والأصدقاء، لكي يشارك الحضور بهجة العروسين وفرحتهم.

سرد ابراهيم الكوني في رواية "واو الصغرى" بعض مظاهر الزواج لدى الطوارق؛ من خلال استحضار حدث زواج العذراء بالزعيم؛ إذ يقول:« غسلن جسدها البتول بالماء النفيس، ودلكنها بالمراهم المستحضرة من زهور الرتم، ومشطن لها من شعرها جدائل بهية. ثم زغردت لها العجائز ويبشرنها في الأغاني بالهناء لأنها ستصير قرينة الزعيم»[32]، وهو جزء من طقوس الطهارة الجسدية التي تقوم بها العروس قبل الزفاف، من تطييب للرائحة وتمشيط للشعر، لتظهر زينتها وجمالها أمام زوجها والحاضرين.

وفي جو بهيج، ترافق الزغاريد العروس، وتبشرها الأغاني بالحياة التي ستعيشها مع قرينها الزعيم،« في الطريق غنّت الشاعرة أشعار الحنين والموت والقران، فكانت الرفيقات يرددن اللحون الشجية وراءها فيستبد الوجد بالفرسان، فيرتجفون، ويدمعون، ويفزّون خارج البيوت، ليتابعوا الموكب الجليل دون أن يجرؤ على الاقتراب خطوة واحدة»[33]، وتعتبر الطقوس التي ترافق الزفاف، والأغاني الشجية التي تزرع الحزن والوجد في نفوس الحاضرين، رمزا للنهاية والموت والبؤس، خاصة إذا نظرنا إلى موقف العروس من الزفاف« اعلم إن المرأة لا تغفر لرجلها إخراجه لها من بيت الأب أبدا»[34]، بل تقارن المرأة بين بيت الأب والزوج؛ فالأول الذي ولدت فيه؛ يمثل الفردوس الأبدي الذي تسعى فيه للخلود، وأما الثاني فهو الجحيم الذي ساقت إليه عنوة، في سبيل العادات والتقاليد، لتغدو المرأة ضحية للأعراف الاجتماعية. بالنسبة للرجل فيختلف موقفه من الزواج، فهو يعتبره رمزا إيجابيا لبداية حياة جديدة، ورمزا للميلاد والتجدد.

2. اللباس الطارقي: يجمع الطوارق أن لباسهم، هو أحد النواميس المقدسة التي جبلوا عليها من قبل الموروث الشعبي، لتتشكل قيمة اللباس الطارقي ضمن بنية الوعي الجمعي للطوارق، إذ« تلعب الذاكرة الجماعية دورا فعالا في الحفاظ على كيان الشعوب ذات الثقافة الشفوية فتنتقل القيم التي أسسها الأسلاف نقية مشعة عبر مختلف أشكال التعبير، لا تنطفئ شعلتها ولا يضعف الزمن من تأثيرها على الأجيال المتعاقبة»[35]، ليرتبط الطارقي اجتماعيا ودينيا وثقافيا بكل العادات والتقاليد والقيم التي ورثها تباعا من الأسلاف.

لا نعتد في القول بأن اللباس الطارقي أصبح ضمن الترسبات الثقافية والفكرية لشعوب الطوارق، بل هويتهم الحضارية؛ ويتكون لباس الرجل الطارقي من عباءة عريضة، فضفاضة لا تكشف تفاصيل الجسم، تأخذ اللونين الأسود والأزرق؛ لكن غالبا ما تكون زرقاء اللون، وهذا ما يرجح سبب تسمية الطارقي باسم الرجل الأزرق.

كذلك يعد اللثام جزءً أساسيا في لباس الطوارق، حيث يغطي نصف وجه الرجل؛ ولهذا الأخير قيمة مقدّسة بالنسبة لهم؛ حيث تعود قصة اللثام حسب الكاتب أكناته ولد النقرة في كتابه "الطوارق.. من الهوية إلى القضية" إلى ما« أورده الحافظ عز الدين بن الأثير في تاريخه الكبير حول ذلك، والرواية بلفظه: " وقيل أن سبب اللثام لهم أن طائفة من لمتونة خرجوا مغيرين على عدو لهم، فخالفهم العدو إلى بيوتهم، ولم يكن بها إلى المشايخ والصبيان والنساء، فلما تحقق المشايخ أنه العدو أمروا النساء أن تلبس ثياب الرجال ويتلثمن، ويضيقنه حتى لا يُعرفن، ويلبسن السلاح، ففعلن ذلك وتقدم المشايخ والصبيان أمامهن، واستدارت النساء بالبيوت، فلما أشرف العدو رأى جمعا عظيما فظنه رجالا فقالوا: هؤلاء عند حريمهم يقاتلون عنهن حتى الموت»[36]، وبعد تلك الحادثة أصبح اللثام أحد المقدسات التي يتمسك بها الطارقي، هذا اللباس الذي يحمل هيبة ووقارا من جهة، وقيمة شعبية- تراثية من جهة أخرى.

وأورد ابراهيم الكوني في روايته "الدمية" قصة اللثام، قائلا:« ابن الصحراء جاء من جوف الأم ملثما، فكيف تريده ألا يصير اللثام عضوا في بدنه كاليد والمنكب والذراع؟»[37]، هكذا استمد اللثام ديمومته في عرف الطارقي، وسنّت الأعراف نواميس اللباس، ومن يخالفها يعتبر غريبا عن القبيلة، ويطرد خارج النجع ليعيش حياة التيه والضياع، نتيجة العصيان والتمرد على النواميس المقدسة.

واسترسل الروائي في حديثه عن قيمة اللثام في العرف الطارقي، قائلا:«عرفت قبيلا آخر في صحراء أخرى، توارث عن الأسلاف عيدا للثام تنحر فيه الأضاحي ويتسابق الفرسان بالمهاري، وتغني الصبايا أنبل الألحان، في هذا اليوم من كل عام يتم اختيار اللثام الأجمل أيضا»[38]، لتتجرد قيمة اللثام لدى الطارقي، من مجرد لباس اصطدم بحكاية توارثتها الأجيال وداولتها الألسن إلى أسطورة مقدسة، تقام لها

الأعياد وسط مراسيم توصف بالدينية، تذبح فيها الأضاحي وتقدم القرابين فخرا وفرحا بلباسهم المقدس، ليغدو اللثام أحد النواميس المقدسة التي فرضت قيمتها من خلال رمزيتها الاجتماعية والثقافية.

3. القرابين والنذور: تعتبر عادات النذور والقرابين من أهم العادات التي بسطت نفوذها داخل المجتمعات الإنسانية قديما وحديثا، وقد شاعت هذه الظاهرة منذ القدم، وتتعدد أسبابها حسب حاجة المتقرب الذي يدعو الآلهة تضرعا لتحقيق رغباته وأطماعه من جهة، وقد تكون شكرا وخوفا من أذى من جهة أخرى. وتعدد أسباب القرابين يؤدي إلى تعدد أشكالها، فقد يكون القربان حيوانيا، وهو الأكثر شيوعا لدى أغلب الشعوب، لكن لدى البعض الآخر يتخذ القربان شكلا بشريا، نظرا إلى حاجة المضحي، وطمع الواهب. وهذا الشكل القرباني شائع لدى الشعوب التي تعرف بآكلي لحوم البشر.

وفي تنوعات شكل القرابين، يقول سيد القمنى:« موقف يرى أن القربان في بداية أمره اقتصر على ثمار النبات، ثم رأى الإنسان- زيادة في تملق آلهته- أن يذبح لها من ماشيته، بحسبان اللحم أعلى من النبات رتبة،(...) وإثباتا لخلوص ضميره لآلهته، تحوّل نحو الدماء البشرية»[39]؛ ومفاد قول سيد القمنى؛ أن القربان شهد تطورا ملحوظا عبر الأزمنة؛ فمنذ القدم كان نباتيا، حيث يقدم المتقرب نباتا مقدسا للآلهة لقضاء حاجته، لكن بعد هذه الفترة، أخذ شكلا آخر، بغية تكريم المتقرب لآلهته، استعان بالقربان الحيواني. وأما آخر مراحل التقرب القرباني، فكانت محاولة لتقوية الروابط الشعائرية بين الإنسان والآلهة، أو بين الإنسان ومظاهر الطبيعة، ليخلص الإنسان في الأخير في تقديم أخيه الإنسان قربانا للآلهة؛ لأن الدماء البشرية لها قيمة كبيرة لدى الآلهة، لذلك قد يستعين بها المتقرب نتيجة طمع الآلهة وجشعها في طلب نوع القربان لقضاء حوائج المتقرب، ليستجيب لها طمعا في تقوية علاقاته مع العالم العلوي، والعالم المقدس.

تجلت ملامح القربان الحيواني في رواية "واو الصغرى" لابراهيم الكوني بنحر عنزة سوداء، وإراقة دمائها فداءً لروح الزعيم الذي يرقد في الضريح، وطلبا للغيث:« نحروا العنزة السوداء، وجاءوا بغلام مشطور الرأس بشعر كثيف، ينتصب إلى أعلى، كعرف الديك، غمروا يديه بدم الأضحية، جرّوه إلى بنيان الضريح. وضعوا يديه على الحجارة فكتبت الأصابع العشر العلامة التي حفظتها الأجيال... هذا دمنا نحن يا مولانا افتداه دم الابن. هذا دم الابن يا مولانا افتداه دم العنزة السوداء»[40]، وعادة تقديم القرابين لضريح الزعيم الميت هي عادة توارثتها الأسلاف، وهذا بسبب تعلق الطارقي بزعيمه؛ لأنهم يعتبرون روحه ستبقى خالدة حتى وإن فارقت الجسد، سيظل زعيما روحيا للأبد يتوددون له بالقرابين، لتلبية طلباتهم، وإراقة الدماء كجزء من الشعائر العقائدية التي تؤمن بها الطوارق.

وأشار ابراهيم الكوني في مدونته السردية "واو الصغرى" إلى استعانة الطارقي بالقربان البشري إرضاء للطبيعة في قضاء حوائجه، والاستفادة من خيراتها، فبعد حالة الجفاف تقرب السكان من السماء طلبا للغيث الذي سيحيي الإنسان والشجر والحيوان؛ فأرسلت لهم السماء نبوءة تفيد ما

يأت:« ماء في السماء، وماء في الأرض. إن عدمتم ماء السماء ففتشوا عن ماء الأرض(...) قربان الأرض ليس أقل من قربان السماء»[41]، اجتهد العرّافة في تفسير النبوءة، استعانوا بالحفار الذي اكتشف المنبع المائي، وأنقذ الواحة من حالة الجفاف، لكنه في الوقت نفسه كان القربان البشري الذي ارتوت من دمائه الأرض، فالطبيعة لا تعطي إلا إذا أخذت ما يشبع رغباتها.

4. الهجرة والترحال: تشكل ثنائية الهجرة والترحال معادلات موضوعية للفضاء الصحراوي، التي ما لبث أن غدت شرائعها الاجتماعية والدينية، نواميسا مقدسة لدى سكان الصحراء. إذ وجد الطارقي نفسه مجبولا على الترحال الدائم، نظرا لطبيعة البيئة الصحراوية الصعبة سواء من ناحية الحرارة أو الجفاف أو رياح القبلي، التي تعصف بالنجع لتحرك وجدانه بضرورة الهجرة وترك المكان، والذهاب إلى وجهة أخرى، بحثا عن مناخ أفضل أو على الأقل أكثر ملائمة للعيش من سابقه؛ وذلك اقتداءً بالسلف وامتثالا للناموس الصحراوي.

تعتبر الهجرة والترحال من أبرز التعويذات التي يؤمن بها الطارقي ويرددها خلال رحلة بحثه عن الفردوس المفقود الموجودة في كل تمائم الصحراء؛ «أنقذ الترحال وصية القبيلة البدئية من الزوال؛ لأن لغة التكوين التي أسست المفاهيم الدينية والوجودية لم يكن لها أن تتكشف للوجود أخيرا لو لم تجر على لسان شتات القبيلة التكوينية المتمثلة في طوارق الصحراء الكبرى»[42]، ومفاد هذا القول أن الشتات والهجرة والضياع من العناصر الأساسية في الكشف عن الوجود الديني والتكويني لقبائل طوراق الصحراء الكبرى.

وردت وصايا الناموس المقدس في متون الثلاثية السردية التي بين أيدينا؛ وعلى لسان شخصيات إبراهيم الكوني؛ بقولهم أن السفر والترحال هما أحد وصايا الأسلاف: «ألم يعلمنا ناموس الخلاء ان من يمتلك أرضا امتلكته أرضه؟... ألم يوصنا الأسلاف أن نحترس من البقاء في أرض أكثر من أربعين ليلة؟»[43]، حذّرت السنن الطارقية من خطر البقاء في أرض أكثر من أربعين يوما؛ لأنها ستعرض الصحراويين إلى خطر الوجد الذي سيحل بهم، والخطف من طرف عالم الجان والأرواح التي تسكن الصحراء هذا من جهة، ومن جهة أخرى مخالفة الناموس ووصايا الأسلاف، سينتج عنه البؤس والشقاء، والتيه والضياع.

الهجرة والترحال هما سنن الأولين الذين سكنوا الصحراء، يرمزان للميلاد والتجدد؛ لأن من سكن مكان جديدا سيعيش حياة متجددة، سيترك ورائه ماضيه، ويقبل على حياة أخرى، كمن يخلع ثيابه القديمة ليلبس ثوبا جديدا، فيتغير منظره، وتتحسن نفسيته، وتتجدد روحه بطاقة ايجابية جديدة، كذلك هو حال الطارقي الذي يجدد حياته الصعبة والشاقة، بتغييره للفضاء الذي كان يقطنه.

ثالثا: الرموز الإنسانية

ظهر الإنسان في الثلاثية الروائية (واو الصغرى، الدمية، الفزّاعة) لإبراهيم الكوني، بتشكيلات مختلفة، مثل شخصية العراف، والزعيم، والغريب. لعبت هذه الشخصيات أدوارا أساسية في تغيير مسار الأحداث وتحولاتها داخل الخطاب السردي هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى ظهرت المرأة في التصور الطارقي في دور ثانوي يعكس قيمتها داخل مجتمعها.

1. الزعيم: ظهرت شخصية الزعيم في ثلاثية إبراهيم الكوني في شكلها اللاعادي؛ إذ تجرّدت من كونها شخصية عادية تدير شؤون القبيلة، وتحظى بالكثير من الاحترام والتقدير والتبجيل، لها سلطة سياسية واجتماعية داخل مجتمعها، إلى شخصية البطل المضحي؛ إذ تفرض النواميس على الزعيم «أن يضحي حرصا على مصير القبيلة، يضحي بالسعادة، كما ضحى بالعزلة، كما ضحى بالشعر يوما»[44]؛ فالزعيم الذي تنصبه القبيلة لابد أن تتوفر فيه شروط الزعامة؛ من خلال التجرد من حياته العادية، وتكريس نفسه لخدمة مجتمعه. ويشترط فيه أن يكون ابن أخت الزعيم القديم ليتولى منصب الزعامة وشؤون الحكم، و تعكس هذه المظاهر الحياة السياسية الطارقية، وطرق انتقال الحكم والزعامة، وهو ما ترجمه إبراهيم الكوني في الثلاثية.

خلال تطور الأحداث السردية وتداخلها، تحوّل الزعيم من شخصية المضحي إلى شخصية أسطورية، تحظى بالتقديس والتأليه؛ والشخصية الأسطورية وفق ما أورده يوسف شلحد في كتابه "بنى المقدس عند العرب قبل الإسلام وبعده" هي:«عموما كائن بشري: رئيس قبيلة، فارس شجاع أو جد رمزي عظيم، يضطلع بدور بطل حضاري. ولكن يحدث أن تقوم الأسطورة بنقل مغامرات يعيشها البشر إلى العالم الكوكبي. وبهذا النوع الخير الذي يمكن وصفه بالكوني، والذي قد يكون قريبا من التصور الكلاسيكي للأسطورة»[45]، وهذا ما لمسناه حين تقرّب الطوارق من ضريح الزعيم بالقربان والأضاحي، تبرّكا وتيمّنا بروحه الخالدة التي لا تزول. ولعل تعظيم الطوارق لشخصية الزعيم حولته إلى بطل خالد، لا يزول بزوال الجسد« حتى بعد موته فإنه يظل في حاجة إلى النذر والهدايا»[46]، تسمو روحه إلى السماء، لتغدو قيمته رمزا للقانون الأعلى وناموسا للتعالي، ونورا يستضيء به الطارقي في حياته الاجتماعية والدينية، وطقوسه الشعائرية.

2. العرّاف: تلجأ النجع إلى العرافين لتفسير النبوءات؛ لأن العرّاف هو الصوت الخفي الذي يحمل النبوءة الكاملة، والكامنة بين خبايا الصحراء، والشخص الوحيد الذي يستطيع أن يفك طلاسم النبوءات التي تحملها أسراب الطيور التي تحلق فوق النجع حاملة الأسرار. هو المخوّل لفك شفرات النبوءة التي تحملها الطير، وتفسير لغتهم؛ فالنبوءة هي«ملاذ العرّافين في عراكهم مع أباطيل الدنيا وقساوات الأقدار»[47]، فتبدأ جهودهم في تأويل النبوءة بين جناحي الطير. عبر قراءة وصايا السماء من خلال الطيور المحلقة، التي تنذرهم من خطورة الوضع الذي ستكون عليه أخلاق الطوارق بعد مغامرة البحث عن "واو" الفردوس

المفقود، وخيانة ناموس الصحراء.

ولعل الحادثة التي وقعت أثناء اختطاف زعيم "واو" لنساء قبيلة آزجر توضح حقيقة مكانة العرّاف في سنن الطوارق. إذ شنّ زعيم آزجر حربا على"واو" لاستعادة ابنته المختطفة« جمع هذا البطل الرهيب جيوشا من كل القبائل، وزحف بها ليضرب حول الواحة الشقية حصارا لم تشهد الصحراء له مثيلا في كل تاريخها الطويل»[48]، اختار حيلة حربية تحمل لغزا ذكيا؛ يتكون من شقين، فالشق الأول« دمية فاتنة لفتاة حسناء»[49] وأما الشق الثاني فكان« جمجمة حقيقية، كئيبة، معتمة(...)ملفوفة في جلد ثعبان بال»[50]، لم يستطيع زعيم الواحة فك طلاسم لغز الرسالة، فاستعان بأشهر العرافين العميان؛ لأنهم لا يخطئون الرؤية، فقدموا جهودا لقراءة خفايا لغز الدمية، وخبايا سر الجمجمة، فأقروا أن« الإتقان في تركيب الدمية يقول في لغتنا إن صاحب الرسالة يريد أن يقول إنها حسناء سواء أكانت في المفرد أم في الجمع(...) الجمجمة إشارة هلاك»[51]، لتفصح الرسالة الغريبة لزعيم آزجر أن ابنته إحدى المختطفات؛ ولا يوجد حل بديل إما إرجاعها، أو الهلاك والموت، لينجح العرافين في إنقاذ الواحة من أكبر حرب قد تشهدها.

استعانة العامة وزعماء القبيلة بالعرّاف يدل على قيمته الرمزية وسط المعتقدات الطارقية التي ترى في العرّاف رمزا للنبوءة، وكاشف لأسرار الماضي والمستقبل، هو العين التي ترى مالا يستطيع الآخر رؤيته، هو رسول الحكمة والتأويل.

3. المرأة: موقف الحضارات الإنسانية القديمة، والأديان السماوية والوضعية من المرأة متباين جدا، فبعض الحضارات ترى في المرأة الكائن الناقص، لا يمكن أن تعيش حياتها إلا بوجود الرجل الذي يكمل حياتها، فتكون خادمة طائعة عابدة للطرف الثاني دون رفض أو امتعاض من حالتها، التي تفتقر لأدنى شروط الحياة، «فنعتت نعوتا قاسية فكانت عند بعضهم لعنة ونذير شؤم، وعند البعض الآخر مياها مؤلمة تكنس السعادة من البشرية، وسميت عاهرا ومساعدة للشيطان عند غيرهم»[52]، و أما لدى البعض الآخر فإن المرأة تعامل معاملة الحيوان، بل قد يكون الأخير أفضل منها إن تعلق الأمر بالبقرة والقرد لدى الهندوس، وبالتالي غدت حياة المرأة بائسة شقية تمتهن فيها كرامتها، مسلوبة الحقوق، لتغدو جسدا بلا روح.

وفي حضارات أخرى ترقى المرأة إلى مكانة المعبود، فنجد الحضارة اليونانية والرومانية وغيرها، يسمون آلهتهم بأسماء أنثى فيقدسونها ويتقربون لها بالدعاء والصلوات والقرابين، طلبا لمرضاتها ودرءً من كل شر قد يصيبهم، أما الإسلام فقد أعلى من شأنها بعد حياة البؤس التي عاشتها في عصر الجاهلية، لتصبح لها حقوق وعليها واجبات، تعيش حياتها دون استبداد وظلم من طرف الرجل والمجتمع، بل رفعت إلى مقامات عليا.

وموقف الطوارق من المرأة من خلال ثلاثية الكوني(واو الصغرى، الدمية، الفزاعة) كان قاسيا، نعتوها بالحية، واعتبروها رمزا للشر والبلاء«الأولين هم أول من حذر من المكوث في أرض تكثر فيها النساء، لأن المرأة كجيوش الجراد إذا دخلت ديار قوم فلا بد أن تحمل لها البلاء»[53] ثم يضيف:« المرأة إذا كثرت في أرض كثرت فيها الفتن، وإن قلت كان ذلك أهون»[54]، ومفاد هذا القول أن الطارقي يرى في المرأة رمزا للبلاء والشر ونذير الشؤم الذي سيرافقهم إن مكثوا في أرض تسكنها نساء كثيرة، وهذا ما حدث فعلا حينما تحولت المرأة من كائن يعيش التهميش، إلى شخصية محورية غيّرت مجرى الأحداث، لتصبح محور الصراع، وسببا لزوال الواحة.

4. الغريب: لم تعد الصحراء في ثلاثية الكوني(واو الصغرى، الدمية، الفزّاعة)، فضاءً جغرافيا وحسب، بل غدت كالروح الخفية التي تسكن ساكنها، فتجعل الطارقي مكبلا عاجزا أمامها، هذا ما لمسناه حين تقربنا من النصوص السردية، التي أظهرت مدى تعلّق الطارقي بصحرائه، إلى أن ارتكب الخطيئة ليعاقب بالغربة والنفي. وتجلت ملامح الغربة، حين تجرّد الطارقي من الصحراء وتمرّد على وصايا "آنهي"، وبحث عن"واو" الفردوس المفقود ليقع أسيرا لها ولأطماعه، ليتحول من درجات التقديس إلى دركات التدنيس، ومن العالم الصحراوي الروحي إلى عالم الواحة المادي.

الغريب في ثلاثية إبراهيم الكوني نوعان: الغريب الأول، هو ذلك البائس الشقي الذي نفي من القبيلة وطرد خارج السرب، ليخرج من الصحراء مغضوبا عليه نتيجة لخطيئة اقترفها، ولعل أعظم الخطايا التي يقع فيها الطارقي هو تمرده عن العادات والتقاليد، والرفض التام لوصايا الناموس الصحراوي المقدس، ليعيش الغريب الشقاء والتيه نتيجة ما اقترفه من تجاوز لقيم الطوارق وأعرافهم. ليغدو الغريب والشقي رمزا للضياع والتمرد، هو رمز العزلة والوحدة والتيه، هو الخطّاء والملعون الذي تجاوز وصايا الأسلاف والناموس.

أما الغريب الثاني؛ فهم الذين اقتحموا الواحة، وحملوا معهم قانون البيع والشراء، لينشروا ثقافة التجارة والمقايضة وسط القبيلة، الأمر الذي جعلهم محل سخط وانتقاد من طرف سكان الواحة، واعتبروا الغرباء رمزا لبعث الشر، ونشر الدنس بين سكان الواحة« الغرباء ادخلوا للأرض بدعا غريبة سوف تعرف القبيلة خطورتها بعد زمن؛ لأنها تخالف الناموس، وتهدد بنشر الدنس بين السكان، وسوف تقضي في القريب على نقاء النفوس»[55]، لتأخذ مرحلة دخول الأغراب لـ"واو" مرحلة جديدة لسكان الطوارق، من الناحية الاجتماعية والأخلاقية، إذ مارسوا التجارة وامتلكوا التبر وتمردّوا عن الوصايا والنواميس، وتحولت قيمهم المقدسة إلى مدنسة، ترى في الأشياء والمادة السبيل الوحيد لبلوغ الفردوس المبحوث عنه.

خـــــاتمة:

يعد إبراهيم الكوني كاتبا فذا، نهج منحا سرديا مغايرا تمام لم كتب قبله ويكتب بعده، هو

ظاهرة فنية اخترقت عوالم الخطاب الروائي العربي، بتقنيات سردية تجاوزت المألوف والعادي بالنسبة للقارئ العربي، الذي وجد في نصوص إبراهيم الكوني عبق التاريخ والأصالة والموروث الشعبي، الذي لازال يصارع لأجل الخلود سواء لدى الوعي الفردي أم الجمعي.

تزخر نصوص الكاتب الليبي إبراهيم الكوني بمزيج سردي حكائي، عجائبي، تتجلى فيها عظمة التآلف بين سرديات الأسطورة والخرافة، الغريب والعجيب، المقدس والمدنس، لتترجم واقع الإنسان الطارقي الذي يتشبع بروح السلف والأولياء، يؤمن بعاداته وتقاليده التي ما فتئت أن تحولت إلى نواميس عليا لا ينزاح عنها الطارقي.

توظيف إبراهيم الكوني لظاهرة المقدس الصحراوي في نصوصه الروائية، هو استلهام لموروثه الشعبي، وامتداد لبنيته الثقافية والاجتماعية، فالطارقي يرى في تلك المظاهر الطبيعية قوة خفية خارقة تسيرها قوة غير مرئية، يسكنها عالم الجان والأرواح، لتزيد من رهبة الطارقي الذي لم يجد في علاقته بالفضاء الصحراوي طوقا للنجاة، سوى تقديم العبادة والتقديس لمظاهرها خوفا من غضبها وطمعا في إرضائها.

علاقة الطارقي برجال السلف تميّزها ملامح الرهبة والتقديس كذلك ؛ إذ تجمع بينهما علاقة متباينة تتأرجح بين الخوف والرهبة تارة، ومحاولة التقرب منهم طمعا في قضاء الحوائج، أو ردا لأذى وشر عن طريق القرابين والأضاحي تارة أخرى، لتغدو علاقة الطارقي بأسلافه هي علاقة مقدّسة يدين لهم بالوقار والاحترام والرهبة.

محاولة إبراهيم الكوني في المزج بين خطابين ثقافيين المقدس والصحراء، هو تجربة فريدة من نوعها في مسار الخطاب الروائي العربي، إذ تجلت ملامح عظمة نصوصه في محاولته الدائمة إلى إحداث ثورة سردية، على مستوى مضمون الخطاب؛ من خلال استدعاء الأسطورة الطارقية والخرافة الشعبية والرموز العجائبية، لتتحد بروح الفلسفة الوجودية والتصوف، لتشكل في الأخير خطابا ثقافيا يبرز جمالية المقدس الصحراوي في أعمال إبراهيم الكوني، ليفتح بابا جديدا في حركة التجريب الروائي.

الهوامش والمراجع والمصادر:

1 ابراهيم الكوني: وطني صحراء كبرى/ حوارات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 2009، ص160.

2 ابراهيم الكوني: واو الصغرى، ص197.

3 المصدر نفسه، ص 220.

4 ابراهيم الكوني: الدمية، ص95.

5 ابراهيم الكوني: واو الصغرى، ص168.

6 فتيحة بركات: الصحراء وثقافة شعوب الهامش في رواية "عيون الطوارق" لألبرتو فاثكث فيكيروا، مجلة التواصل، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة باجي مختار، عنابة، 2010م، ص155.

7 ابراهيم الكوني: الدمية، ص177،176.

8 غسان غنيم: رواية "من انت أيها الملاك؟!" وقضية اندثار شعب، مجلة جامعة دمشق، المجلد 29، ع2013،2،1م، ص366.

9 ابراهيم الكوني: واو الصغرى، ص240.

10 ابرهيم الكوني: الدمية، ص173.

11 ابرهيم الكوني: الدمية، ص32.

12 فتيحة بركات: الصحراء وثقافة شعوب الهامش في رواية "عيون الطوارق" لألبرتو فاثكث فيكيروا، ص156.

13 ابرهيم الكوني: الدمية، ص 40.

14 ابراهيم الكوني: الفزّاعة، ص86.

15 فيليب سيرنج: الرموز في الفن-الأديان-الحياة، تر: عبد الهادي عباس، دار دمشق، ط1، سورية، 1992م، ص173.

16 فيليب سيرنج: الرموز في الفن-الأديان-الحياة، ص178.

17 ابراهيم الكوني: واو الصغرى، ص10،9.

18 ابراهيم الكوني: واو الصغرى، ص10.

19 أوهيبي كلثوم: المقدس والمدنس في رواية السحرة لابراهيم الكوني، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأدب الحديث، إشراف: شريف بموسى عبد القادر، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، 2011/2010، ص74.

20 سورة الفيل، الآيات 1-5.

21 أوهيبي كلثوم: المقدس والمدنس في رواية السحرة لابراهيم الكوني، ص 70،69.
22 ابراهيم الكوني: واو الصغرى، ص09.
23 ابراهيم الكوني: واو الصغرى، ص24.
24 ابراهيم الكوني: واو الصغرى، ص 121،120.
25 ابراهيم اللكوني: واو الصغرى، ص 121.
26 ابراهيم الكوني: وطني صحراء كبرى/ حوارات، ص53.
27 ابراهيم الكوني: واو الصغرى، ص21.
28 ابراهيم الكوني: وطني صحراء كبرى/ حوارات، ص54.
29 فراح زينب: الزيارة النسوية للأضرحة، مقاربة أنثروبولوجية بضريح سيدي قادة بن المختار بولاية المعسكر، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع، إشراف: العايدي عبد الكريم، قسم علم الاجتماع، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران، الجزائر، 2011/2010، ص56.
30 ابرهيم الكوني: الدمية، ص26، ص39.
31 رابح دراوش: علم اجتماع العائلة، دار الكتاب الحديث، الجزائر، (د.ط)، (د.س)، ص20.
32 ابراهيم الكوني: واو الصغرى، ص84.
33 ابراهيم الكوني: واو الصغرى، ص84.
34 ابراهيم الكوني: الفزّاعة، ص 122.
35 فتيحة بركات: الصحراء وثقافة شعوب الهامش في رواية "عيون الطوارق" لألبرتو فاثكث فيكيروا، ص157.
36 أكناته ولد النقرة: الطوارق.. من الهوية الى القضية، مطبعة طوب بريس الرباط، المركز الموريتاني للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2014، الرباط،ص75،74.
37 ابراهيم الكوني: الدمية، ص56.
38 ابراهيم الكوني: الدمية، ص57.
39 سيد القمنى: الأسطورة والتراث، المركز المصري لبحوث الحضارة، ط3،القاهرة، 1999، ص99.
40 ابراهيم الكوني: واو الصغرى، ص81.
41 ابراهيم الكوني: واو الصغرى، ص197، ص 220.
42 ابراهيم الكوني: ملحمة المفاهيم 3: لغز الطوارق يكشف لغزي الفراعنة وسومر [بيان في لغة اللاهوت 7]، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، لبنان، 2006، ص53.
43 ابراهيم الكوني: الدمية، ص40.

44 ابراهيم الكوني: واو الصغرى، ص147.

45 يوسف شلحد: بنى المقدس عند العرب قبل الإسلام وبعده، تعريب: خليل احمد خليل، دار الطليعة للطباعة، ط1،بيروت، لبنان، 1996، ص84.

46 الميلودي شغموم: المتخيل والقدسي في التصوف الإسلامي/ الحكاية والبركة، مطبعة فضالة، ط1، المحمدية، المغرب، 1991، ص218.

47 ابراهيم الكوني: الفزاعة، ص48.

48 ابراهيم الكوني: الفزّاعة، ص150.

49 ابراهيم الكوني: الفزاعة، ص153.

50 ابراهيم الكوني: الفزاعة، ص153.

51 ابرايهم الكوني: الفزاعة، ص156، 157.

52 فتنت مسيكة بر: حواء والخطيئة في التوراة والإنجيل والقرآن الكريم، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، ط1، بيروت، لبنان، 1996، ص40.

53 ابرايهم الكوني: الفزاعة،ص148.

54 ابرايهم الكوني: الفزاعة،ص145.

55 ابراهيم الكوني: واو الصغرى، ص244.